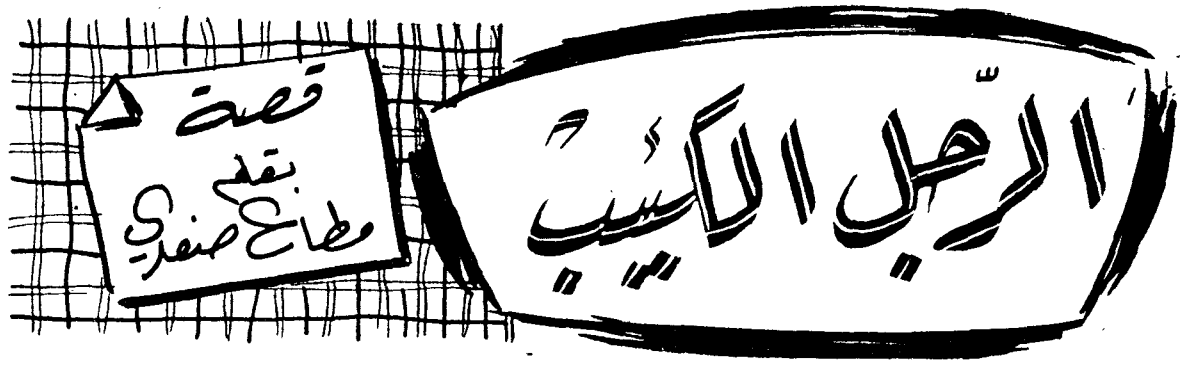

(القسم الثـــاني)

لم يكن احد يرتاد دور السينما هذه الايام .. والنهار الخريفي مديد، كظل لافعوان مقتول من عصور ومتدل من غصن شجرة نخرة . كنت اقطع الساعات بالتدخين خلف مكتبي .. ان جاري محام كبير .. وجاري الآخر صاحب جريدة .. جميع اهل المهن الحرة محشورون في مثل هذه الابنية .. ثقوب في الكلس الابيض ، المدهون ببخار العمل .. من كل جسد ، وفكر اشبه بالجسد ... يتعرق هو الآخر ، ويتصارع مع عقول اخرى من اجل النفس .

ولكن .. تحت ، في أسفل العمارة ، على الارصفة .. لا أقدام !..

وحولي من كل جهة في شقق الاعمال .. لا رؤوس ، ولا صخب افواه .. ولا اخيلة متسارعة على الجدران .. لا زبائن من الناس ، ولا بضائع من الناس ، ولا قيم .. سوى هذا الهمود كشهر من آب ميّع الاشياء والحيوانات والارادات المسلوبة من اهدافها ..

لقد تأخر جاري المحامي الكبير هذا الصباح عن عادته . سمعت هذه المرة ، وقع اقدامه دون ايقاع منتظم . وعندما دخل الردهة القى عليه سكرتيره تحية الصباح ، ولكنه لم يجبه بشيء . صفق الباب خلفه . عاد السكون الى المكتب . فتحت باب غرفتي الوحيدة .. وظللت انظر الى الردهة .. وكان مقابلي يمكث السكرتير وراء مكتب اضخم وافخم من مكتبي .. كانت الآلة الكاتبة لا تلسعها اصابعه المنعظمة .. كان دائب الحركة بين اوراق . ومقاعد الزبائن لا يشغلها احد .

واخيرا تلاقت انظارنا . وفي الماضي كان وجهه الجامد ، المظلل دائما بأخيلة الحروف التي امامه ، يصدمه وجهي الجامد .. وكنت احس بنظرته ، المتنقلة كأسرع من الحرباء بين الزبائن ، تلسعني بسرعة البرق لسعة خاصة ... لا تطال حتما شيئا من جيوبي . والآن فانه يظل قليلا ينظر الي .. والقى بعض كلمات تدغدغ لساني فألقيتها مع نفثات من الدخان :

ـ انها راحة لك يا سعيد افندي ..

ـ ما هـــذه ؟

ـ الحـرب !

ـ أية حرب تعني ؟..

ـ بمصر .. او انك لا تعترف بذلك ..

ـ آ .. نعم .. اتظن انها ستطول ؟ قضي الامر .. وغدا يرجع الزبائن ، ستكون لنا قضايا جديدة ولا بد ..

ـ وكيف قضي الامر .. يا سعيد افندي ؟

ـ اعني .. لا ادري .. لكن ثمة نهاية لكل شيء .

وينفتح باب الاستاذ .. ويخرج متمهلا ، ويقف بيني وبين السكرتير قائلا ببرود محترم :

ـ أتمانـــع ؟ ..

ودخل قبل ان يسمع الترحيب مني . انها المرة الاولى .. ولكننا نعرف بعضنا من زمن طويل .. وكان الخطاب معدا تحت لسانه ، فانطلق في لهجة رتيبة :

ـ وانا اقول مع سعيد افندي انه قضي الامر .. ان القصة بالنسبة لي لا تعدو كونها مجرد مناورة سياسية كغيرها من المناورات . وان كان استعمل فيها شيء مختلف هذه المرة . بعض الجنون والدم .. والرعب.

هذا الرجل اعرفه جيدا . ان له وجها مشدود العروق والوجنات كأنه لبس على جمجمته جلدا من المطاط . تغطي رأسه ـ من اعلى ـ طبقة رقيقة من الشعر الاسود او مجموعة من الشعرات صففت كل واحدة على حدة ، على مسافة دبلوماسية من الاخرى .. كما يجب ان يكون دائما بين رجال يعملون في الشئون العليا .

واما ملامحه فانها تتكدس بكتل صغيرة حول عوينات رقيقة تشف له العالم . ان وراء هذا الرجل اكثر من ثلاثة آلاف قضية في محاكم الجنايات والجزاء : من قضايا القتل الكبرى الى قضايا المال الغامضة .. وكلها الى نجاح . القاتل تعتذر منه المحكمة . والنشال الرأسمالي يضيف انتصارا آخر الى برج انتصاراته على يد هذا الرجل .. وتتعنت اصابع السكرتير وهو يضرب على آلته .. ومنذ شهر برم السكرتير من الآلة القديمة فرضيت ان اضعها في مكتبي .. لان آلة جديدة ستتحطم تحت ثقل حروف هذا المحامي .

وصمت سكرتيره الجليـــل .

وها هو الان يعرض قضية اخرى ، وينفث حولها من كهنوت الخبث واللؤم والعفن .. انها لا تمت بصلة الى قضيتي .. واثرته مرة اخرى :

ـ ومن سيكون المنتصر برأيك ؟

ـ ليس من حقي هنا ان اقرر من هو المنتصر ومن المنكسر .. فليس لي أي دخل في المعركة .. ثم أوتظن اننا قد اصبحنا اهلا لان نقرر شيئا من امورنا ؟ كل هذا عبث يا سيدي ، لا يفيدنا شيئا . لماذا لانقدر امكانياتنا ونعرف حدودها ثم نسلك بحسب هذا التقدير ؟..

وكدت ان اصرخ بوجهه ، فلقد كان السكرتير يعبث بلسانه ، اخرجه من فمه وراح يلعق شيئا على شفتيه . بدأ يتغذى . هناك شيء يسيل كالمرق . تلك هي الكلمات الحاسمة التي يعيش منها هو وسيده ولا شك. انه يتحدث عن الامكانيات ، عن القوى التي يخشاها هو اول من يخشى . انه لا يستطيع ان ينظر الى شعبه لحظة . سيرتاع .. ستخيفه تلك البذور .. بذور الشر التي بدأت تنضج في تربة العبودية .. الشـــر ، الدمار ، الجنون الدموي . شر شعبي .. أواه كيف ستطول مخالب الاسـد وانيابه مرة ثانية ؟

لقد ظل هذا الانسان يثرثر اكثر من ساعتين . كان في محكمة من

نوع آخر . يدافع حتما عن قضية خاسرة . تلك القضية التي تتيح له ان يتاجر بالصدق وبسذاجة الانسان في ارضي .. انكون سذجا بعد اليوم ؟ .. كلا يا سيدي . اكشف اوراقك هيا .. انك ولا ريب منهم .. من هؤلاء الذين يعملون في ظلام المعركة .. فيما وراء الخطوط .. في الخلف من كل شيء – من هؤلاء الذين اكتشفت تجارتهم فتاة من الماخور .. الجواسيس . باسم الشيطان .. باسم الشيطان وحده أتحداكم .. أولكم الجرأة حتى ان تكون لكم عظمة الشيطان نفسه .

لقد حل موعد السينما ، وكان المحامي واجيره ما زالا يتحدثان في مكتبي يضجان بصخب النحاس الاسود . وقمت خارجا من المكتب كله دون ان انبس حرفا واحدا ... واستغرقني الشارع . كان على عادته شبه خال ... وصفرة الشمس تلقى على واجهات المحلات غلالة الموت . ما زال العابرون يسرعون . لا احديتسكع. وبعض العيون معلقة بالسماء . وافواج الشباب ... الشباب وحدهم ، يطفرون بالحياة . ولكنها حياة حبيسة . ان دمشق تحولت كلها الى سجن كبير . الحرب في كل مكان ... الا هنا ... كل وجه يصرخ بالحرب ، كل ساعد يود لو يرفع في وجه عدو صريح . ليتنا نحول هذه المدينة الى جبهة ... انها جبهة ، ولكنها بدون حرب ... بدون حرب .. واضرب الرصيف باقدامي ، واسمع حولي ملايين الضربات على الارض الصماء ؛ وعدنا نموت ، وعدنا نقرر الطريقة التي بها نريد ان نموت ...

لقد اصبحت وحيدا من جديد . وكنت بصقت من لحظات رواسب ذلك الوجه في معدتي ... وجه المحامي وشعراته القليلة ، وجلده المطاطي. ان وجوه الناس تتقابل في الشوارع ، تتامل بعضها للحظات ، لكن احدا لا يعرف كيفيحب، لا يعرف كيف يصنع الحب له وللملايين. ان الخجل يربك القوي عندما تغله قوة لا يعرف مصدرها .

لقد بدأت احب هذه الوجوه ملأى بالقوة ، ملأى بالخجل . ان احدا من شعبي لا يود ان يتفرج الى الابد على مصيره ... واذا كان كتب لجزء من شعبي لا يود ان يتفرج الى الابد على مصيره .. واذا كان كتب لجزء اللحظة .. تحرق بيادر قمحها من اجل هذا الفجر .. فجر لا بد ان يشرق ، ونحن الذين سنبدع موسمه .

يحين وقت السينما . في هذه الساعات الجافة من وهج النهار ... بعد الظهر . بعد الظهر حيث تخمد عقول الفكرة الطائشة ... الفكرة الطائشة عن كل تمثال جامد تجعدت في حجره ملامح تاريخ صغير ... عصر السرعة حيث تهتريء الحواس على عجل ، ويضمر القلب ، ويبقى لسان لاهث متدل من كل فم امام مغريات لن توجد ولن تنتهي ..

بعد الظهر ... وكوم الامعاء في كوم البطون تجتر دقات قلوب .. لا نفع لها الا في تحريك طاحون اللحم ..

بعد الظهر مدينتي صفراء خاوية ... تغلق ابوابها دون الحياة . وتتخثر في النوم ... يجمع المغبون هلاميته ويحشر ميوعته داخل قوقعته .

ما أكلت منذ الامس ... منذ منتصف ليلة امس . كانت قطعة من الجبن الاشقر مع بضع جرعات من الخمر في مطبخ سلمى . وكانت سلمى تراقبني .. كانت تنوي ان تطردني . انها ... لا نفع لها عندي.

لست بحاجة لان اطعم شيئا . لدي نصف ليرة ... ولقد خيرت نفسي ان ابدد هذه القطعة الفضية اما عند بائع السندويش ، او في دار السينما ... وأحب السينما .

لقد اغرمت دائما بالسينما . منذ ان كنت مراهقا صغيرا ... آواني كرسي منعزل في دار من دور العرض . كنت اقشعر عند سماعي لبعض معزوفات التانجو قبل العرض ... وخاصة عندما يصدح الكمان في بداية التانجو وحده على الوتر المنخفض المبحوح . كنت هناك .. معه اعشش في فجوات الهزات . احس بدفء المرأة . احيا انطلاقة الانسان في الغرب. استرق قبل الفجر في بوهيميا ...

وابكي لصور الوداع على الشاشة واغيب في الافق ... اتمنى ان اكون بطلا .. بطل قبلة ، او بطل وحدة ، او بطل اسطورة .. كنت بلا واقع فلماذا لا اكون بطلا ؟ كنت بلا اصدقاء .. بلا اسم . ادخل السينما في الحفلة المسائية الاخيرة . كان موظف الدخول في كل دار يعرفني .. بائع الجرائد الصغير ، التعب .. المغرور دائما ، الذي لا يكلم احدا ، ولكنه ينظر بعيون تفتح له الجيوب والابواب ..

ذات ليلة جلست قريبا من المتفرجين ، قريبا من طفل كالوردة . وكان الفلم مضحكا .. فضحكت تلك الليلة بشيء من الهذيان .. والتفت الى الطفل لنضحك معا .. عندئذ تحولت الوردة الى قنفذ مذعور .. وانزاح الطفل الى جانب امه .. وسحب يده الصغيرة البيضاء من المتكأ . ايقنت تلك الليلة انه لا سبيل حتى لأن تشارك احدا في ضحكته !

لقد خرج بعض الموظفين من المطاعم .. وها هم ينحدرون الى المقاهي . انهم هناك سيبلغون مجد راحتهم وشبعهم .. يدخنون ، ويتحدثون عن بور سعيد ، ويتأملون في هيئات المارة ووجوههم . وعندما يستمعون الى الصفارة سيبددهم الرعب ... وينحشرون في ثقوب تحت الارض . لابد ان مكتبي اصبح فارغا من المحامي الكبير وسكرتيره الاصم . انه انطلق الآن في سيارته السوداء الى قصره .. وهناك تستقبله العائلة المذعورة.. ان شهيتهم للطعام قد انخفضت منذ بدأت الحوادث . ولا ريب ان ابنته الشقراء ، هذه الصبية التي تأنف من تحيتي كلما صادفتني قرب مكتب ابيها، ابنته هذه قد عرضت نفسها علىطبيبها ليصف لها بعضالمقبلات.. ان هيفاء هذه اصبحت طالبة عندي لمدة شهرين قبل فحص البكالوريا. كانت ضعيفة في الادب فطلب ابوها ان ادرسها لقاء دفعه ايجار غرفتي – او مكتبي العظيم – عن شهرين .

اعجبني شعرها الاشقر وهي مطرقة على الطاولة امامي تكتب .. كان شيئا رائعا حرا كحزمة من قمح حزيران .. ملك الطبيعة ، فلمسته . وعندئذ جفلت الفتاة ، واحتقن الغضب في وجهها النظيف .. وربما اربكها انها لم تر في وجهي ما ينبيء عن جريرتي فعادت الى الكتابة .. وفي اليوم الثاني حبست شعرها .. اجمل ما فيها ضمن قلنسوة خمرية وفقدت بعدها تلك الرغبة الحلوة التي عانيتها مدة تدريسي لها ... واعتذرت من ابيها .. واجفلها تصرفي ، فخابرتني بالهاتف تسألني عن السبب .. واجبتها بكلمة واحدة : أنني تعب !..

ولقد رأتني مرة برفقة سلمى . واتصلت بي في اليوم الثاني تسألني ان كان يمكنها ان تقدم لي موضوعا ادبيا انقحه انا لها . ولقد وضعني والدها امام الامر الواقع اذ دعاني الى تناول الغداء في بيته . وتلك هي المرة الرابعة منذ سكنت في غرفة ملحقة بمكتبه وامتهنت المحاماة .

سألتني هيفاء بعد الطعام في جلسة مريحة :

– لماذا لا تنضم الى ابي نهائيا ما دمت مبتدئا وهو قديم ؟..

– نعم ! هذا سؤال وجيه .. والحق انني لم افكر في هذا من قبل .

– اذن ما رأيك لو تنضم اليه منذ الغد ؟... وسنحتفل الليلة بذلك ..

– ارى انك على عجل يا آنسة .. ثم ما الذي سيفيده والدك مني، فانا كسول .. لا احب الاوراق ، والقوانين .. وكل مرة ادخل فيها

الى المحاكم اقع في مشاكل نتيجة اهمالي او شرودي ..

وضحكت هيفاء براحة تامة ، وارتمت بنصف قامتها الى الوراء ، والتمعت اسنان نظيفة كوجهها .. وددت لو لمستها بلساني :

ـ انك طريف يا استاذ انور .. لم أر شخصا بسيطا مثلك .. قل لي هل لك مورد آخر غير مهنتك هذه ؟..

ـ كلا ...

ـ اذن كيف تأكل ؟..

ـ اسمعي يا آنسة .. لست انا الآن امام محضر تحقيق .. انني اعيش وكفى !...

وبهتت هيفاء قليلا ثم قالت بلطف رائع :

ـ لم اقصد اهانتك يا استاذ ... ولكني كنت احسب ان مهنة المحاماة وسيلة ... بل من احسن وسائل الربح او الاثراء .. وما كنت اظن ان هناك من يجوع منها ... اعني من هو على حالك تقريبا ...

ـ اترثين لحالي اذن يا انسة ؟..

وانطلقت ضاحكا بدوري . وقد اطلت ضحكتي حتى رابها امري ، واحمر خداها من خجل لا تدري له سببا ..

ـ ما عنيت هذا .. كف بربك ... كف عن هذا الضحك ... انك تثير ابي بضحكتك هذه .

ـ وماذا نفعل ؟!

وعندئذ تنتفض مرة اخرى وتقوم كمن يود ان يضع حدا للزيارة ، ولكنها ما تلبث ان تجلس ... وتمر بيدها البضة على عنقها قليلا ، وتتمتم بصوت مبحوح :

ـ كل ما هنالك انني اردت مساعدتك قليلا ... انك على وشك الزواج ، ولا بد لك من عمل حقيقي ...

ـ على وشك الزواج !! من قال لك هذا ؟ اية خرافة تلك ؟.

ـ اما كنتما خطيبين ؟

ـ من .. انا ومن ؟

ـ انت و .. و.. تلك الفتاة الانيقة ...

ـ آه .. سلمى ! وكيف وصلت الى هذه النتيجة ؟ .. كيف حكمت اننا على وشك الزواج .. لم يخطر على بالي هذا المشروع ..

ـ ألا تؤمن بالزواج ؟..

ـ ما هذه الكلمات الكبيرة يا آنسة هيفاء : الايمان .. الزواج .. ليس في قاموسي مثل هذه الالفاظ ..

ـ ما الذي يجعلك قاسيا هكذا ؟

وتلك هي صفة لم اكن احسب انني سأقع يوما تحت نيرها . ان اصابعي طويلة تقبض على الاشياء بحدة .. أأخشى ان اضيع اشيائي دائما . وفي سحنتي .. وخاصة عند الصباح ، شبح ليل .. ليل من الابدية .. كما لو اني فارقت عتبتها من لحظات . ولكم خانني صوتي عندما كنت اضطر ان اجيب الناس . كانت كلماتي ترن في فراغي كصوت غريب يصدح من جهة ما .. أأكون اذن قاسيا ؟

ورأيت الى عينيها فكان الحنان ، وشيء كالشفقة . فلقد حركت قسوتي شفقتها علي . تلك بضاعة لا ثمن لها .. لا ثمن لها على الاطلاق .

وفي عالمي ليس ثمة من مساومة ..!

عندما توفي ابي جفل المعزون عندما لم يلمحوا قطرة دمع في عيوني..

وعندما سقطت ابنة الجيران من الشرفة ... صرخ بي احد الناس وقد هالته ملامح وجهي .. ماذا تراك تتأمل أتتشفى بمرأى الطفلة المهشمة ؟!.

وعدت الى شفاه هيفاء لأتلقف منها حبات الحنان المسعورة ... الملوثة برضاب بخيل ..

ـ انك لا تستمع الي اليس كذلك ؟ ابدو لك طفلة فضولية ثرثارة .. تريد ان تخلق لها اية قيمة في نفس ضيفها !.

ـ كلا .. ولكن لماذا لا تكفين عن الحديث عنك وعني ؟..

وتلك دهشة اخرى تتأزم بها خلقة هيفاء الرفافة . ولكني اشجعها بابتسامة اشد فيها طرفي فمي المنطبق على نفسه كفم طلسم ابدي .

ـ اعني يا آنسة هيفاء ان حولنا الالوف من الناس الذين يمكن التحدث عنهم دائما . قلوب لا تتناهى ، وعيون تجول فيها نظرات الحياة بالف صورة . كل له طريقه وقصته . كل له اشياؤه الصغيرة . ليتنا نستطيع ان نتعرف اليها ، اذن لبدت لنا الحياة غنية كل الغنى . كان احرى بالانسان ان يحطم المرآة . احرى به ان يشغل عينيه بمناظر الوجوه الاخرى .. انني احب ان استرق الآخر من غربته . لا أريد أن يعرفني او أعرفه . ليس ثمة من وسيلة لحوار متكافيء دائما .. ولكن تحتاج غربة ان تناظر غربة اخرى ... وحولنا العالم ، اننا نعيش فيه ، فلماذا نخفي مكاننا عنه .. انه مكان فيه .. فيه مهما اختبأ وراء بيت او مكتب او مهنة او اب او حبيب.

ـ وماذا تريدني ان افعل .. ان اعيش من اجل اناس لا اعرفهم ؟! انهم لن يحسوا حتى برغبتي هذه .. وهي اني اود ان اعرفهم او احبهم .. اتريدني ان اعترف لك بشيء ؟!..

حذار هذه امرأة اخرى ستعترف لك !..

ـ .. نعم اود ان اعترف لك . لقد كان لي يوما خطيب . كانت كل الدلائل تنبيء انه سيكون رجلا له قيمته ، عاقلا يحافظ على ثروة عائلته ومكانتها في المجتمع .

لم يكن بيننا فروق اجتماعية او مالية . وعائلتانا باركتا هذه الخطوبة . وكان من المقرر ان يكون زواجنا مباشرة بعد انتهاء خدمته العسكرية . اتدري ماذا فعل بقصة حب دامت اكثر من خمس سنين وبآمال رائعة اشتركت عائلتان بما فيهما من اصالة ونبالة وكرم في تغذيتها ؟! .. لقد احب المسكين العسكرية وبدأ يتكلم عن ميزات الحياة في الجبهة .. يراقب العدو ولا ينساه لحظة كما لو كان في المدينة .. وهذر بكلمات عجيبة كالامة والبطولة وجيل التضحية .. وانتهى به الامر ان اصبح ضابطا نظاميا واختار مكانا له دائما في الجبهة .. وطبعا انتهى بيننا كل شيء ... قبل ان تلومني على شيء ارجو الا تتخذ مثل هذه الكلمات الجوفاء مادة لنصحي ، فليس ثمة من وجود مصلحة لي خارج بيتي هذا .. أنا اقول ذلك ليس لاني لا اعتقد بالوظيفة او الامة او كل تلك الكليشيهات .. انما اعلم ان لي حياتي التي احب ان احياها بالطريقة التي تلائمني ، فليس هذا كفرا بأي واجب او قيمة ..

ـ صحيح .. ولكن لماذا كل هذا الالحاح على الاعتقاد او الجحود ؟ لقد فعلت ما بدا لك انه الصواب .. فالرجل برأيك اما ان تمتلكه امرأته او امته ، وبين المرأة والامة نفس الصراع والغيرة والدم كما بين امرأة وامرأة اخرى .. هذا تصوير شعري ، او بالاحرى نفسي جنسي مستورد من بضاعة اليهودي فرويد لتلويث كل معنى اعتقد به انسان.. أليس ما يفرق عادة بين اليهودي والانسان ان الثاني رجل عقيدة دائما ، والاخر مجرد يهودي دائما ؟ فلماذا لا يفلسف اليهودية رجل كفرويد ويحطم كل عظمة جعلت مصير الانسان ارقى بقليل من مصير حيوان ..

ـ وما دخل فرويد في الموضوع ، فأنا لا ادعي ان « تحسين » خطيبي يعاني ازمة ما ، فهو لا يحس انه مخير بين فتاة وامة . فلقد كان من السهل عليه جدا ان يتلقى خاتم الخطوبة . كان ما يزال يضحك وهو يقبض عليه كقطعة من الحصى ثم يرميه بجيب بنطاله ، ولقد خرج لآخر مرة من هذا البيت .. كأنه سيعود اليه بعد ساعات . كان رجلا لا يعرف ما معنى الصراع . كان يضحك دائما كالابله .. ولم يقل لي اكثر من انه يريد ان يبقى في الجبهة .. احب المكان هناك .. جبل رائع من الخضرة تشرف على الارض السليبة .. جيش من الشباب يقف على الربوات بانتظار ان يكتسح السهل .. ما معنى هذا بربك ؟... أليس هذا منتهى الجنون ؟.. ألا يعلمون ان محاربة اسرائيل تعني محاربة نصف العالم ؟ ومع ذلك فهم يقضون زهرة عمرهم في صحراء .. في تحفز مستمر لا طائل تحته ..

ـ وكيف تقضين انت زهرة عمرك ؟ .. ما معنى ان تكوني في بيت وفي مدينة ... ما معنى ان تولدي وان تختاري زوجا وان تكون لك مطامع ؟ ما هي تلك القيمة الكبيرة التي يحتوي عليها جسدك الصغير هذا ؟ انهم في الجبهة اكثر من افراد ، اكثر من اجساد صغيرة ، اكثر من مطامع حيوانية .. انهم على الاقل يحملون قضية تتجاوزهم جميعا وان كانت صنع سواعدهم .. ومع ذلك من يدري ما هذه القضية ؟ يجب ان تعم الجبهة كل ارضنا قريبا لنعلم حقا ما هي قضيتنا هنا خلف الخطوط .. ما وراء الاسلاك والترقب والحذر المجنون والقوة التي تفترس نفسها . حتى المدافع والمفكر لن يعرف الحقيقة .. ان لم تشتعل بين ايديهما قصة النضال بكاملها . ان كل مناضل يخلق القضية من جديد .. يهبها معنى ان تكون قضية .. أجل .. ولكن ينادي بها هذا الانسان المعين ضمن ظروفه ..

وأجابتني هيفاء برنة خيبة منهارة :

ـ لا ريب انك منهم ... المهووسون ، هؤلاء الشباب الذين يقلبون حقائق الحياة بمجرد الحماس .. ومع ذلك يدعون انهم يعيدون نظام الكون ..

ـ صدقيهم .. هذا الايمان وحده كفيل بأن يقلب الحياة . لا يخلق الحياة دائما الا مؤمن .. ولقد كان بعض المهووسين في تاريخ العقائد يخلقون الحياة وهم يؤمنون بعالم فوق الحياة اي بقتل الحياة ... فما رأيك لو ان جيلا يريد الحياة بالحياة نفسها وللحياة ..

ـ ولكن المسألة تبقى كما هي .. مجرد مهووسين .. وانت منهم ، ولكن لا يبدو عليك انك حي على الاطلاق ..

ـ تلك هي مأساتي .. فانا لا اعرف بعد كيف اكون مع النور او مع الظلام نهائيا ..

اننا كلنا هكذا ... ولكن بالرغم من هذا فلكل حريته الخاصة ..

*

يئست هيفاء مني وحملتني خيبتها ، فحملتها فوق عشرات من الخيبات الاخرى .. لقد كان يكفي ان تصنفني انني .. منهم ، هذا الصنف المخيف الغامض ، حتى تنتهي من مشكلتي .

وما انا بعد الا فوق كل صنف .. انني هذا الظل الطويل الذي يتأرجح على غبار الارض .. يسير امامي على الرصيف في شمس ما بعد الظهر الكئيبة .. معدة خاوية ، وحلم بهدأة على كرسي منعزل من اية سينما .

لقد كنت املك دائما هذه النصف من ليرة الدولة . استطيع ان افعل بها ما اشاء سوى ان اكون مجرد جوعان .. انسان طويل القامة الى درجة مخيفة .. يخشى بعدها ان يتثنى ، ان ينعطف على بطنه مرة . لن يصرخ : اطعموني ، سأبقى جائعا . تلك مسألة لا افكر بحلها اليوم او غدا . انني استطيع ان اعمل حالما يحلو لي العمل .. وتلك هي حكمتي دائما ، ذخيرتي التي تجعلني لا اخاف اكثر ، لا استذل نفسي لمعدتي فحسب ..

ابحث عن شيء لا القاه في مال او طعام .. ابحث عن هذه القضية التي لا القى لها ظلا حقيقيا الا عندما تنطفيء المصابيح كلها ، وتفرغ الشوارع من حمولتها ، ويقف بائع الجرائد الضئيل يطمع في عملة ضئيلة تملأ يده الصغيرة .

لقد اشتركت بالجوع وبفكرتي عن الجوع مع شخص طريف ، احببته دائما ، او انني اردت ان احبه ، وان لم استطع ذلك باستمرار . كان شابا ممتلئا بالعضلات ، يكاد يكون كله عضلة متوترة تلقاء اية عضلة اخرى من نوع آخر . يحب ان يقاتل ، ان يصارع ، يبحث عن حفلات الملاكمة ليعرض قوته ويتقاضى بضع ليرات لقاء بضع كلمات وكدمات في الانف والعيون . حتى لتزول دائما ملامحه ويتحول وجهه الى كتلة من اللحم الاحمر النازف .

كنت لم ازل ابيع الجرائد المسائية في احياء المدينة النائية ، بينما اعمل طالبا في الجامعة خلال النهار . وفي احدى الامسيات اجتثتني فجأة يدان من جذوري .. وبرز لي وجه من الظلمة ضار حاقد ... مسكين .. أتبيع جرائد الرياضة يا هذا .. اعطني واحدة ، لن ادفع لك .. تجار الرياضة اين هم الخبثاء .. اما من حفلة ضرب .. اما من مصارعة .. من ملاكمة هذه الايام ؟..

وبدأت صداقتنا او بالاحرى زمالتنا بالتشرد والجوع والتفكير ليس

بتجار الرياضة والاخبار فقط .. بل بكل تجارة تختنق بهـا قيم الحياة في بـلادنا ..

لقـد اصبح يحمل عني جرائد الرياضة ويمضي بها الى النوادي ، وهناك يضطر بعض الناس الى شرائها كلها .. وتتقاسم الارباح ، كانت له طريقته العضلية في كسب العيش .

وكنا نلتقي اخيرا .. في نهاية السهرة .. سهرة في الشوارع .. وبين الايدي والوجوه العابرة .. الناس الذين يدفعون لقاء جريدة ، اية جريدة ، يقتلون بها الوقت .. هي كل قراءتهم .. انها البضاعة التي تعوضهم عن الكتب ـ يتحدثون بعناوينها في أي مجلس ، ويبرهنون انهم يديرون العالم .

نلتقي اما في الخمارة المعهـودة .. او في حجرته . احببت تلـك الحجرة دائما .. ما كان فيها سوى بساط و(منقل) للدفء او لوهم الدفء ـ وهناك يحلو لي التمدد ساعات استمع فيها الى بطـولات (ابو الفوارس) ـ وهذا لقبه ـ كان يعرف كيف يتحدث عن القـوة ، عن صور القـوة ، عن حوادث العنف التي خاضها ، وكان منتصرا فيها كلهـا . ويبدو انه في غاية البهجـة .. كأنه قضى نهاره كله بـين حلبة واخرى ، وليس بين درب وآخر ، من دروب الفاقة فى مدينتي . كان في حوالي الخامسة والاربعين من عمره ، بينما كنت لم ازل انا في التاسعة عشرة من عمري . ولقد كان يفضل ان يبدأ حديثه معي موجهـا لي نداء خاصا اتوقع بعده ان استمع الى كل حادثة تعج ذكراها فـي رأسه الكبير كدن من الخمر الضحلة .

ـ اسمع ايها المثقف الجائع .. ان كل الذين يحملون الكتب تحت ابطهم او تحت صلعاتهم اللامعة لا يصمدون مجتمعين كلهم .. كل مـن اخرجته مدارس هذه البلاد .. لا يصمدون امام كلمة واحدة مـن قبضتي هذه .. فما نفع هذه الدراسة .. هذه السنين الطويلة الـتي يقضونها بالعطالة ؟ ان المدارس والثقافة ليست الا طريقة شريفة للتبطـل يحترمها الجميع .. جميع السخفاء المرتبين في رتب ووظائف .. ماذا يفعل هؤلاء ، قل لي بربك ؟.. ان احدهم ينتقل من مقعد الدرس الى كرسي الديوان .. من عبودية الاستاذ الى عبودية الرؤساء ، من كسـل الجلوس .. الى حقارة المساومة وراء المكاتب الفخمة .. انا اعرفهم .. اعرفهم كلهم ... لقد كنت اجلبهم واحدا بعد واحد لاخضـع رؤوسهم النظيفة الى نعال الحاكمين .. كنت شرطيا ذكيا ذات يوم .. استخدمني رجال كثيرون .. ومن العجيب يا صديقي .. ان الذي كنت اعمـل مـن اجلـه .. يطلب مني مرة اخرى ان اجلبه لأحقق معه .. لقد كنـت ارى السلالم تقلب بين عشية وضحاها ، عاليها سافلها ، وسـافلها عاليها .. هناك لعبة (جمباز) عجيبة لم ادرك سرها بعد .. وتجيء انت تحدثني اخيرا من خلال جرائدك وكتبك عن عظماء ورجال قيادة .. وافكار ومثل .. هيا فليس امامك الا ان تمرن عضلاتك .. وبعدهـا ستجد كثيرا من الناس .. من العظماء بحاجة الى حمايتك .. سيدفعون لك كثيرا .. انت ما زلت في اوج شبابك .. واما انا فلم يعـد لي نفع .. لقد لفظوني يا صديقي .. لم يعد يرضى احدهم بي .. ان اكون بوابا له .. او سائق سيارة عنده .

ويضرب ابو الفوارس بقبضته المتحجرة على حجر الفرفة .. ويذهب في نظرة جامدة عبر الجدار الى ما لا نهاية .

واقول له بصوت منخفض اجش :

ـ ولكن بيدنا ان نغير كل شيء . انا اعلم ما هي الطريق ، الطريق التي لا تحتاج الى استئجار عضلات . ليست بعيدة .. لا تهزأ ، سوف ترى ذلك يوما ما .. من هذه الحجرات في كل حي .. في كل مدينة وقرية .. من مثل هذه الجلسات على البساط وامام محجر لا حجـر فيه .. وفي ليل لا عشاء فيه ولا فراش ، وتحت سواد الوف مـن الحروف .. ومن بين الورق .. الورق الذي يباع ويشرى ، من كـل حجر لا تعرفه الشمس ... مني ومنك .. من بقايا الوجود ، من رواسب المجتمعات .. من جحافل الحقيرين الذليلين من الذين لم يدخلوا بعد في مراتب النبالة .. الذين سيصنعون نبالة جديدة .. من هؤلاء ستبنى الطريق .. هـذا هو دين العصر .. كل الاحقـاد ستجد اكوام هشـيمها ...

لكم اتمنى ان التقي بأبو الفوارس هذا مرة اخرى . لقد انتقل من حجرته وغاب من شوارع المدينة ، ولم يعد يظهر في أي ناد ليبيـع جرائد الرياضة .. اختفى من ساحة التشرد فجأة . ولم تعد لـه حلبة معينة ظاهـرة .

لعلـه عاد الى مهنته القديمة ، فيؤجر عضلاته مرة ثانية لرجل او نظام بحاجـة الى حماية .

يحدجني بائع التذاكر ، المنكمش خلف نافذته ، بنظرة وجلة مستغربة ثم يأخذ رجل التذاكر في الداخل تذكرتي بذات النظرة . ان السـينما تستمر لمجرد الاستمرار .. ولكن لا معنى لها هذه الايام .. ولا معنى اطلاقا لمن يدخلها . انها فاتحة ابوابها .. نعم . ولكن ليس من المتوقـع ان يدخلها احد .. ككل مؤسسة في البلد اذ تتقوض على نفسها ... وتجفل امام الاحداث .. الاحداث المجهولة التي تأتي من اقصى الارض .. ومع ذلك فانها على بعد شبر من هنا .. هذه المسافة اللعينة ستبقى تفصل بين الحدث وصاحبه في مدينتي ...

انك تولع سيجارتك، ولكن من عود ينبغي الا يمس فمك بناره ... ابدا . انك تكتفي بأن تغب الدخان ، والنار عليها ان تبقى في رأس الدخينة .. وهكذا على هذه الطريقة ، فاذا كنت ادخل السينما فليس معنى هذا هو انني ادخلها حقا .. واذا كنت اكره المحامي الكبـير وابنته المدللة هيفـاء ، فليس معنى هذا ان كراهيتي ستحرقهما هما والمكتب والقصر والسيارة .. واكواما من كتبه العلاقات الاجتماعية التي يرزحان هما واشياؤهما تحتها .

واذا كانت طردتني سلمى من بيتها ليلة امس ، لانني كنت جامدا ، اكثر مما ينبغي من رجل يزور امرأة بعد منتصف الليل ، فهذا لـــن يمنعني من زيارتها مرة اخرى .. واذا كنت رجلا طويلا ، محاميا مفلسا، متسكعا ضائعا بين حطام الظلال من كل شيء ، اعبث بكل فكرة وكل رجل يخطر ببالي ، انزو نزواتي بصمت ودون ان تخرج من حدود جسدي ، واتأمل بصمت واثور بصمت ، وتكون لي حياتي كلها داخل جـلدي المشدود .. ليس هذا مؤديا بي لان اكون مجرد التسكع والطول واجترار المثل والحياة البعيدة .

هكذا احب ان يحتويني جو السينما المظلل .واقبع على كرسي مـن مئات الكراسي . واشغل حيزا في هذا المعبد الكبير .. معبد القرن العشرين ، حيث العابد جملة من الناس ، عوضا عن ان يركعوا يجلسون جلسة مريحة تتجه صفوفا وجوههم كلها نحو قبلة واحدة ، تشـــع بالضوء واللون والحركة . ها هنا تعرض على العابدين الجنة بكـــل صورها ومباذلها وشهواتها . ها هنا يكمن الانسان الغريزي ، وقد وجد الارتواء الكامل لغرائز لا تتناهى . ان الظما والشبق المسلول والتطلـع المسترق ، يتفتح تلقاء الصور ، ويتحد بتلك الحوادث الموهومة بيـــن القبل والعراك والعوالم المصطنعة من هوليوود .

في بهو المعبدالمظلل يرتفعالسقف بانواره الفضية، لا لينفتح نحو السماء بل ليحبس الانسان في رقعة الضوء المخلوق . انه عصر الكهرباء وليس عصر النور !.. العصر الذي يقدم للجنس ، للفتاة الشرقية المضطهـدة للشاب المأفون بشبابه ، للعانس ، للعاهرة ، للتاجر ، لجميع النماذج من بقايا الانسانية في هذا الجيل ، يقدم الجنة وليس دونهـا الشـــواب والعقاب ، الاله والزبانية .. بل يقدم الجنة ودونها المسافة ، المسافة بين فمك وانفك ، بين عقلك ويدك ، بين قلبك وشفتيك ، بينك وبين كل آخر من حجر او بشر . ههنا اجلس ، وتعرض امامي جنة الآخـرين ، ولكني اقدر ان اجد جنتي كذلك . هكذا ارادوا .. ان أكون وحيـدا لدرجة الخوف من الجنة ، وان تكون جنة لي لا اعرفها !..

ان السينما تفضح مدينتي ، ولكن ليس من أحد في هذه الحفلة . السينما حيث يكتظ البشر . تتراكم نفثات الانفاس المضغوطة ، تتلامس السيقان والايدي والاكتاف .. ويظل مع ذلك كل فرد .. لحلمه تلقاء شاشة الجنة المصنوعة من ظمئي وظمئه وظمئها . وفي المعبد ، كما في معابد الانسانية كلها ، منذ أن هذر الانسان بالاله والاله بالانسان ، وحلمت الحياة بالموت والابدية ، وحلمت الابدية بالفناء ، يتلاقى الخائفون الذين يطاردهم الوضوح وأقانيم الخير والشر . وتضيع الحدود بينالخيال والحقيقة ، ويحسب عشاق المدينة العفنة انهم يملكون قبلة البطل ، وروعة المفاجأة .. وأرضا بعيدة تنبت تربتها الاساطير .

انساننا الاسطوري .. هذا معبده . ومع ذلك اختفى هذا الانسان ، لم يعد يلجأ حتى الى الحلم . ان الحقيقة تملأ خياشيمه برائحـــة البارود واللحم المشوي . انساننا يختبىء في حجر ما ، ولكنه مازال يلوك آخر حلم . ومن الغريب انكل الابهاء ، الساحات العامة، المنعطفات الذاوية ، الاماكن العامة أصبحت ملكي .. وهانا أرتع فيها على هواي !

بضعة اشباح تتناثر في أرجاء الصالة ، لم يشعروا بالمعركة بعد . وهذا هو شبح انسان يجلس امامي . ظهره الي ، ووجهه الى القبلة كالعادة . انه يتلقف صور القبلة ، يؤمن بمعجزاتها ، يصادق بشرها ، دون ان يتجشم في ذلك حتى عناء تحيتهم .

انا لا اعرفه . لا أسأل من يكون . انه حاجز من اللحم المغطى بالجوخ يقوم امامي ، وعلى استواء الكتفين تتكتل كرة من العظم والفكر والشعر. واذا اتيح له ان يتكلم فسيملأ آلافا من الصفحات . ولكنه سيحسب قصته كقصة الآخرين ، وهكذا يصمت عنها ، وينظر إلى وجوه الزملاء .. زملاءهم كل الناس في عقد لم يوقعه احد ولم يتفق على بنوده احـد . ومع ذلك فانه يتجدد مع كل نفس ومصافحة .. واذاعة مـن اقصى الارض الى اذن في أقصى الارض .. الانسانية ، الكتل ، النسخ ، تأريخ سيزيف بكامله بين السفح والذروة والصخرة التي تصعـد الذروة لتهبط ثانية .. والى الابد .

الانسانية ، ماذا تعني هذه الكلمة .؟

كم تحدثت باسمها ولكت حروفها ، وتنفست هواءها . كم ألقيتها كبيرة مرعبة جليلة في وجه أبو الفوارس ، وهو يشتم كل رجل ومرأة وطفل عرفه منذ امه وابيـه واخيه . انهم جميعا وجوه تستحق اللكمات برأيه .

أبو الفوارس يعتبر جمال كل وجه بحسب مقاييسه التي تســـمح بلكمة اعنف ، اكبر او اصغر . وللكمات في دين ابو الفوارس درجات ومعان ، تشبه القوانين ، تشبه قاموس العواطف والفلسفات . ومـن صخب اللكمات تضج كلمة عرجاء عن الانسانية .

هذا الشبح الذي اتلقف ظهره الاسود ماذا يعرف عن الانسانية ؟.. انه وحده . وأنا وحدي ..

هذه يدي تلمس ظهره ، احب هذه اللمسة .

يلتفت الغريب منتفضا . ولم ار وجهه . ولكني أحسست احتجاجا جبارا ، وغضبة أنوفا مرتعدة في الظلام .

ـ عفوا .. لمستك عن غير قصد .!

وخيم السكون فجاة ، وانطفات أضواء الشاشة . واندلـع صراخ الصفارة ، صفارة الانذار .. وهرع شبح ثم آخر ، وتلكأ ثالث . ثـم فرغت القاعة . وبقيت وحدي .

ارخى الليل سدوله يا صديقي . آن الآوان لان نلتقي مرة اخرى . انك في منعطفك مازلت تبيع جرائد المساء .. اواه ياشبحي الحبيب انت الماضي والحاضر ، انك الصدى الذي لايتناهى ، الوجه الـــذي استنفذ ملامحي ، الوقفة التي استهلكت ذل البشرية ، اوحقد الصمت والكف المفتوحة للعطاء العابر ..

أتيتك بقامتي الطويلة ، المطوطة بين رأس اعشوشب بأفكار واخـزة كشعر الواخز النادر ، وبين قدمين مفلطحتين تستغرقان الارض كلهـا بوطء مفلطح متمهل مصمغ ، لاصق بالتراب .

انني أتهادى ، وكما قالت سلمى لا حاجة لان احرس ظهري. فليس ثمة عيون خلفي أو أمامي . انني الوحيد في شوارع المدينة المهجورة من حياة الليل ، من كرامة السرقة ، انهم لايسرقون .. ولكنهم ينامـون على حلم الهياكل العظمية التي تتعرى من لحمها في بور سعيد . وتحت الاغطية السميكة يدفنون القلق الاسود .. ألست أنا الاسود ، الاسود وحدي ، المحراك الذي يداعب الحجر ولا يكتسب الا السواد .. سواد الهباب ..انظر الي ، هـــذا المساء انا مخيف ، أحس انني مارد .. طويل الى مافوق ضفتي الشارع ، الوادي بين صفي البيوت الكلسية ، طويل ونحيل أطل على كل شيء . لقـــد جئتك بالمعطف المهترىء ، والخطوات الكسولة ، والنظر الشزر ، والعنف المصلوب بين الرأس والكتفين . لاتجرؤ أن ترفع رأسك الي .. بيد انني جئتك بقصة هذا المساء ، لقد تحدث الي المحامي الكبير وناقشني حول الحياة العظيمة ،

وانهى كل الدم بحكمة مدنسة بالجرب الاخضر الحائل . وتذكرت أبو الفوارس ، والبطولة المهترئة ، ولعبة التجسس . ولمست كتف متفرج امامي في السينما ، ونهرتني من وجهه الحانق آلاف العقد الحيوانية المنعزلة على مسافات في غابها .. بينها مجال دائما للفريسة ، وحظ لها بالفوز الدنيء .

ومع ذلك فان عقدتي ، هذا المساء ، قامة لدنة ، مغزولة من كبرياء المحنة والشعور بالانوثة ، قيمة القيم ... هيفاء التي باعت خطيبها وحشرت نفسها طرفا في قضية : هي أو الجبهة . وراحت تنهش من جيفة ضميرها أمامي .. ورأيت الدم يسيل من بين اسنانها .. انها تشتهيني ، انها تدبر لي فخا آخر ...

وفي عالم المؤمرات والاشتهاء من لندن وباريس الى دمشق ، وبيت المحامي الكبير .. وبين نهود وسيقان امرأة مترفة .. تنعقد لذة الموت ، الموت بالنسبة لمجهول مأمون يحترف اليأس ، ويقتات من التشفي . هل اصارحك بالموت ، بالساعات المطرطة كقامتي التي لا خلاص لي منها الا بان اكون جيفة . ان الاحياء يعيشون جيفهم . واما انا فأريد أن اموت جيفتي ..

صديقي لاتطرق ، لاتتعب من رزمات الورق المسود بالكذب والبضاعة المخدرة ...

صديقي لا تطرق ، لا تتعب من رزمات الورق المسود بالكذب والبضاعة المخدرة ..

هذه الصور البشعة أتقيؤها قسرا عن معدتي . واذا فرغ جوفي .. لن يبقى غير القمامة من كل شيء .

دعوا القبور . نحن الذين نعرف كيف تكون الشهادة فوق كل قبر .. محفورة جيدا بالخط الكوفي .. تتمطى بالآيات .. وبالحكمة الفانية .. ههنا تموت امرأة وتبعث اخرى .

المرأة التي أهوى .. الامة التي يجب أن تتزوج جنسي . افتحوا المعابد ... فجحافل العبيد والعذارى تريد ان تقدم فداءها هذه الليلة.

وياصديقي ،يابائع الجرائد الحقير سيطول ليلك ، الى قربك انا ، الى شبحك ينداح شبحي حولي . لاتخف سأعطيك الفرنك . ولكني سأساومك من قبل . الا يساومونا جميعهم .. لقاء التفاهة ؟

الا يجعلونني الذليل والعظيم معا ؟ الا يذيبون أصفادي من حيث هم يحرقون كياني ..

عندما لمست كتف الانسان ، الانسان الوحيد الذي كان يجلس أمامي في السينما ، كنت اترقب شيئا ، ما تبين لي قط قبل ان حط بغضبه في الظلام على رحمتي البريئة ..

أردت ان انقذه ..

أرأيت ياصديقي كيف ان كل متقيح يتذوق صديده وحده .!

أود ان اقدم اليك هذه اللوحة :

ترتدي بلوزة صفراء ، وتحتها تنورة ضيقة سماوية .. وتنقذف على ديوان وردي . ويدها بين جنحي البلوزة تجمع طرفيهما على فرقة النهدين . وفم له انحراف بسمة طفلة . وعينان مليئتان بفيض الخوف والحب والثأر الواهي . وشعور واه يغزل خصرها . وتعب مترف يعبق من الجسد الملتف على سورة الرغبة المجهولة ..

وكلمات حديث عادي تسقط من الشفتين .. أشبه بالنقاش ، أشبه بمساومة ، دعوة واثم وشراهة .

هيفاء من خلال قاموس من الاحاجي واضحة . انها تكره هذا المتشرد الذي يماطلها الجواب ، اللهجة ، النظرة ... الكسول الدبق ، المتراخي على اشياء بيتها العظيم كله ..

شعرها الاشقر جديلة واحدة ، وجسدها حزمة واحدة من المواعيد التي لاتلقى لها زمانا ابدا ..

خيرت خطيبها بين جسدها والجبهة ..

وأنا الآن .. بين ماذا وماذا تخيرني .؟

بين بلوزتها الصفراء ، وجلستها الالهية ، وبين كسلي العميق . كسلي كبئر عششت فيها خمور الازل ، الملوث بالعفن الاسطوري ، المظلم بجو افعواني ، المهجور حتى من صدى السقوط ، من خيال نجم يهوي الى القرار الفاني . لقد اثارتني هذه الفتاة وخلفها هذا العمق : الخطيب المهجور ، والمحامي العظيم ، والقصر الذهبي ، وترف مجرم غاو ... وبعد هذا كله رغبة بمحام ضائع ممطوط القامة ... متهدل الملامح على بطء لامتناه .

ولكنها يا صديقي لصق المنعطف وفوق خوف اللقمة المشنوقة مع حروف الجرائد المسروقة من حقائق الضمائر المجيفة ، تبدو لي فاتنة لذيذة ، اشبه بخيانة رائعة يتقنها جاسوس محترف .

ان خيالي يأبى ان يراها الا ضمن اطار الاجرام الاعظم الذي كان مسرحه شعب العرب منذ الف سنة ، وها هو يتكتف تحت سواعد الفقراء من ابناء بور سعيد .

لقد جئتك هذه الليلة متلصلصا ، مسترقا كياني من بين ملايين الكيانات التي يعشش فيها خبل الحشيش والجنة ، وحريم المآذن واقبية العبودية . المهترئة ، على ضفاف التاريخ ، من كل نهر عظيم اخترق صحراء .. صحراء دنيا الوحش العربي المصفد .

جئت احمل قضية كآبتي التي اصبح لها ملامحي وقامتي ، وصدى خطواتي في منعطفات الشوارع التي تخلى عنها اصحابها لعدم الليل والكلاب الجائعة والحارس المقرور ، وهو يعلن عن وجوده بضربات من عصاه على حجر الرصيف البركاني . ولماذا لاتكون لكل انسان قضية كآبة لها ملامحه وقامته واشياء وجوده التافهة والرائعة .

لااحب ان ازور سعاد هذه الليلة .

امرأة مستلقية على فراش العهد تدخن سيجارات العطالة ، بدون أصباغ . مومياء الخطايا كلها ..

واذا كانت سلمى ليلة امس قد طردتني ، فهي لا بد ان تفتح لي بابها هذا المساء . انها مقرورة .. وانا مقرور والعالم ليل هائل ، جليد ازلي كل جباله ووهاده وعمالقته من البشرية او الغابات والاحداث الدامية .

هذا هو نادي العظماء ، عظماء البلدة تأكله وحشة عجوز ، وينمق في ارجائه يوم المقابر .. في الحي المترف ، حيث تقوم الابنية كمرائس حجرية ، بينها فصائل من حشيش الحدائق الخربة المؤذية .

وفتحت لي سلمى بابها :

ـ ليس لك الا بيتي هذا مأوى لك ، لعلك لم تطفح بعرقك بعد ... ادخل ، انك جائع ولا ريب ... يا لهذه الصفرة المخيفة ... كيف ينظر اليك الناس ... يا الهي . انك مريع ، ما اشفقت على المارة ، على الناس الذين يحيطون بك من هذه الهيئة المريعة ..

كانت المرأة ساهرة كعادتها . والوقت قبيل منتصف الليل . وكانت ثمة موسيقى خافتة من الحاكي الكهربائي . اصغيت اليها ، فاذا هي السمفونية السادسة في الحركة الثالثة :

ـ لماذا تخفضين صوت الحاكي الى هذه الدرجة ؟ يجب ان تأخذ السمفونية عنفها .. انه تشايكوفسكي .. فما الذي يجعلك تكبتين انفاسه هكذا ؟...

ـ انت تحب الضجيج في الموسيقى ، اعرف هذا .. على رسلك ..

وكان ثوب نومها هذا المساء ازرق مموجا بصفرة شفافة . اللون الازرق ... العدم السماوي اللا متناهي ... والعيون الزرقاء من بين الاهداب الطويلة الرمحية ، عيون هيفاء .. لا تعكس اي منظر سوى انها تفرض زرقتها الواهية ، تبثها وهجا باردا ، الوهج الحقير لن يمسني قط ...

واختلجت سلمى من رعشة برد لسعتها قرب النافذة المغلقة ، ومع ذلك فقد اخترقها زمهرير ليل الخريف . فدنت من المدفأة الزرقاء ... وقلت خلال لهجتي البطيئة الزاحفة :

ـ أأسليك قليلا ؟.. اأقص عليك بعض الاشياء ؟ أأقول لك كيف انعطفت الى شارعك العظيم ؟.. انت تعلمين ولا ريب ان هناك بالقرب منكم حيا شعبيا . كنت اتسكع هناك في المصلبة ،.. من قبل كانت الانوار تعج في جوها ... وضجيج الباعة ، وحركة العابرين .. ولقد رأيت هذا المساء دكان بائع الفلافل شبه مغلقة تتكدس وراء الواح الزجاج الزرق فيها اصناف رديئة من حثالات المجتمع الجائعين، يحمل كل منهم رغيفه وينتظر دوره لا يتلقف بعض اقراص الفلافل الساخنة من المقلاة القذرة .

كانوا صامتين ، مطرقين ، ينظرون الى فقاقيع الزيت المغلي . وبين وقت وآخر تعبث اصابع البائع بزر المذياع فينقل الابرة بين دمشق والقاهرة ...

القاهرة التي صمتت منذ ظهر اليوم ، لعلها تعود بعد لحظات ، ويرجع الى دمشق فليس الا ضجيج حناجر المأجورين من المغنين ينشدون الاناشيد المصطنعة في اللفظة والنغم والصوت . ولا يفقد البائع الامل فيحرك الزر وتتحرك مع الابرة عيون الجائعين . انهم ينسون روائح الزيت الرديء المقلي ، وبطونهم الجائعة .. وينصتون بين اصوات الامواج الكونية اللجبة، لعل صوت القاهرة يعود : هنا القاهرة ... هنا القاهرة . ولا شيء ! الا الشغب في المذياع ينقل بعض اصداء القنابل من القاهرة التي كبت صوتها.

في الجهة المقابلة كانت خادمة سمراء تتحدث مع بائع البن . كان الرجل لا يرفع اليها بوجهه . وتضطر الى ان تسكت ثم ترمي قروشها وتنطلق الى بيت اسيادها ... لقد مات الغزل ، والموعد المسروق لن تطاله يد ...

بعض شباب الحي يلتفون حول نار الحارس ... لم يعد احدهم يراقب البنات . كان الظلام دامسا . وهم حول النار ملامح متراقصة ، ووجوه كامدة ... لحم مسلوخ احمر .

ولكن ناديك ما زالت فيه بقية حياة . امام بابه تصطف بعض سيارات الكاديلاك . بعض الاعيان جاؤوا يلعبون القمار ... القمار الحقيقي ... ترى ما الذي جعلك تختارين بيتك هذا مقابل نادي العظماء ؟.

الصدفة طبعا ... ولكن الا يجد بعضهم الطريق قصيرة بين باب النادي وباب بيتك ... ويقضي ليلة ممتعة مع الارملة الجميلة ؟..

ـ لا اعتقد انك طالبتني مرة باغلاق بابي في وجه الآخرين ..

ـ او انت على استعداد لذلك ؟..

وتشعل سلمى سيجارة .. وتنتهي الحركة الثالثة من السمفونية السادسة الاسيانة .

ـ انه يحاول ان يكون بطلا ...

ومن خلال غبات الدخان تقول :

ـ من ؟

ـ هذا الذي تستمعين اليه ...

ـ ولكن ليس على طريقتك .. على كل حال !..

ـ ان اللحن يجتاحه كما يجتاح الزلزال ارضا رخوة حقيرة ، كل منا له عاصفة ، ولكن الاغصان اليابسة ستتحطم اولا .. اسمعيه انه اعطى كلمته منذ البدء ، انه يخفي علمه الابيض تحت دمه .. لقد اظهر رأسه من الحفرة ، ولكن اللعنة ، اللعنة المحرمة ... حللت حتى جبينه .. فلماذا لا يعفره التراب ؟..

اسكتي ، لا تقولي شيئا ، الرجل يندى وجدانه على مستنقع من العنفوان الذي لا يمت لاحد ... حتى ولا لمسخ على الارض . ان تشايكوفسكي يستطيع ان يغمد الخنجر .. ولكن ليس في قلب احد غيره ..

بعض الناس ، كهذا الكمان السفيح على آهاته ، لا يمكنه ان يقر بشيء كما يقر بالموت النادر الثمين ...

انني ابحث عن هذا الموت النادر ، ان تفلو عظامنا قليلا ، لا تخافي ، اعلم انك تفلسفين الموت احسن مني . ان لديك الجمال . واما انا ، محترف اليأس ، فليس لي سوى ان اهدد . املك قبضتي دائما لالوح بها ... وفي يوم قريب ساحطم هذا الزجاج الاخرق المكدس بيني وبين الشمس ، لا نور بدون حرارة ، فكيف يعيش جسدي على نور يجرده الزجاج من وهجه وحياته ؟..

هذا الزجاج يجب ان تخترقه قبضتنا يا سلمى .. استمعي اليه بربك . هذا الموسيقي يعلم انه لا بد له من ان يناضل وان كان سلتم سلفا . ان بطولته هي انه يصنع استسلامه من انتصاراته ذاتها ... هذه هي نهاية سيزيف ، ان الجبل ذاته يجب ان يزول ، وبعد ذلك لن تكون ثمة ذروة وهاوية ومحكوم ينقل الصخرة من السفح الى القمة ..

لماذا نحن هنا ؟ اثرثر أنا ، وانت تحملقين ، وتحت غلالتك الزرقاء هذه تخبو شهوة جسد تدريجيا ..

ـ الن تصمت قليلا ، انني اهبك ساعات الراحة هنا ... أفما نظرت الي قليلا ، لعلي وددت ان اقول لك اشياء كثيرة . لماذا تفرض علينا .. على كل من تتعثر به في طريقك .. تفرض احتجاجك . انه سحنة كئيبة فحسب ، وصوت اجش ينبيء عن ان حنجرتك لم يمر منها الكلام العسلي من سنين . الا يلدغ لسانك قليلا بحرف الراء . هذه اللدغة انعم ما في صوتك ، واحيانا تميل بوجهك الى الامام قليلا ... حينئذ ارى انسانك قليلا ، انه كبير ولا يشبهك كثيرا ، لقد اضعته .

ـ او اقول لك العكس ؟ او بلغ بي الغرور الادعاء انني املك حتى شبح هذا الانسان ... انساني . انا يائس .. أجل ! لكن لن اعرف لي قوة اكثر من هذا اليأس . اتعلمين ما معنى يأسي ؟.. انه الفأس التي تحطم حديدها على الحجر الاسود البركاني ... تولد ثمة شرارة ، ينعكس على وهجها للحظة ، وجهي في ظلام الابدية.

ومع ذلك لماذا احدثك عن يأسي ، انني املك هذه اللحظات الى جانبك احب ثوب النوم الازرق . احب الشعر المهدل ، والطريقة المهملة الرشيقة التي ترمين بها جسدك على الديوان .. الم اقل لك انني اتقن الغزل ... عندما احب المرأة التي امامي ادرك حقا انني انا هو الحب ، انا موضوع هذا الحب اولا وآخرا . فما اعظم غرور الرجل ! ان نظرة امرأة تخلق رجولته ... ولكن هذا الرجل لم يعد له صلة اليوم بي ...

هات العرق ...

ـ التتمة على الصفحة ٨٦ ـ

الرجل الكئيب

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٥٦ ـ

في زاويتي منذ سنين طويلة ، في منعطف شارع الصالحية ، حيث كنت احمل الصحف الصباحية ، كان يحلو لي ان اراقب التلميذات يمضين زوبعات من الجمال والبراءة والرغبة البكر مع زوابع الشتاء في الطريق المزدحم . كنت ارقب دائما بعضهن في سيارات آبائهن الفاخرة .. ما اشتهيت مرة ان اشارك احداهن هذا الترف ، ولكني حلمت ليالي طويلة بان تتاح لي فرصة مغازلة واحدة منهن .

وفي الجامعة التقيت بهن . كان يعوزني الاسلوب الذي به اتحدث لم اكن اخشى منهن احدا .. كنت احس بالاحتقار كلما اقتربت منهن كنت احس بصورة ، بصورة ما ، انني انبل منهن جميعا .

ـ والان يا استاذ ما هو احساسك وقد نلت واحدة منهن ؟ لا اتوقع منك مجاملة ، لقد كنت دائما وقحا بصراحتك ، انك ترمي كلمتك وتشرد ..

ـ انني أتساءل فقط كيف انني نلتك حقا ، انا لا احس ان يدي قبضت على شيء ما بعد ..قبل ان املك شيئا ، يجب ان املك نفسي : ان احدا منا يا سلمى ، في طرقنا وسراديبنا ومواخيرنا لا يعرف بعد كيف انه سيد انفاسه . ان بعضنا يتاجر بالبعض الآخر . هناك من يحصي علينا عدد انفاسنا . يتجسسون علينا ، يدمرون عفويتنا ، يجعلوننا نلقي بوضوحنا الى غموضهم ، نضحي بصباحنا لمسائهم ، نقتل ارواحنا لاجسادهم ، نتنازل عن انسانيتنا لوحشيتهم .. لا تعجبي ، انهم يملأون عالمنا ، حولنا ، انهم أشباحنا ، قد أكون انا وقد تكونين أنت ، فكيف تطالبينني بأن استسلم اليك .. فمن انت بحق الابالسة من انت، انا لا ارى الا وحدة الجماعة السديمية المزرقة من عدم الدم والجبن والمؤامرة . هذا تشايكوفسكي ، اله العدم ، ماذا يفعل بعدمه ، يبعثه الينا عبر الابد ، انه هو الاخر محترف ، محترف فظيع . يعذبنا ويضحك من وراء الغيم : سيزيف ما زال يحمل صخرته بين السفح والقمة .. ولكننا قتلناه يا سلمى ، قتلناه أليس كذلك ؟..

استمعي الى هذه الحركة ، ان هذا الوحش ، وحش العدم لا يعرف كيف يكذب . لم يعد ثمة انتصار الا هذه النغمة الشاحبة المرعبة من المزمار ، تصوت نحيلة مقبورة بعد كل هبة ، بعد كل تجمع طري شاق للقوى المبعثرة .. البعث ، بعث الحرية ، يبقى الامل ، الامل .. هذا السوط المفتول من افعوان التاريخ الميت يلهب لحمنا بالصفعات ، صفعات الامل الرهيب .. هذا الاله لا يعرف البعث ولكنه يتمطى تحت السوط ، وانت لا تعرفينه .. انا وحدي الذي احمل قضية البحث عنه ، لا قضيته . لم ار وجهه مرة ، فكيف اعرفه ، ولكن اتذوق مشاق ميلاده ، آلام انتظاره ..

المنتظرون ، المحملون على انظارهم ، المتطلعون الى ما فوق جماجمهم ، اللاهثون .. هؤلاء هم شعبي . ماذا أعددنا له ؟ ماذا اعد لنفسه ؟ الا قضية الانتظار .. المجترون ، البواسل الذين يمضغون قلوبهم خوفا على قلوب الاخرين .. الذين يفضلون الظلام خوفا من ان يشعلوا السراج ويروا وجوههم .

تشايكوفسكي يعلمنا وحدته . لقد اعطى كلمته ، وفي الحركة الاخيرة .. سيكون انسانه الاخير ، نظرته الاخيرة لا الى الوراء ، ولكن الى اجيال الالم الصامت .. الغاضبون ابن هم ؟.. أين الذين تهدد قبضاتهم آخر شيء يظهر منهم وهم يغرقون في مستنقع الهزيمة ؟.. لماذا تخبئين العرق هذه الليلة يا سلمى ؟.. انها الليالي الفاصلة . لقد بلغ الاجترار تخمته . والبطن الكبير سينفتح ، سنشتم نتننا بأفجع جيفة . وعندها لن يبقى احد له انف . نختنق ، ولكن سنبحث لنا عن هواء اخر .. لن يكون الا في الذرى .. في الذرى ايها المجترون ..

انت مثلا ماذا تخشين يا سلمى ؟ مازالت شعور النعمة مسبلة حولك في كل شيء .. والعاصفة في الخارج ، في البعيد ..

ـ قلت لك انني تعلمت وحشيتك ، لا تخرجني عنك ، لقد اصبحت محترفة انا ايضا ، فلماذا لا تستمع الي قليلا ؟

ـ ماذا اسمع بالله عليك ، لا يمكن لاحد ان يشاركني . هل قلت ان السم شركة ، ان الموت شركة ، ان المظاهرة شركة .. المتظاهرون الذين قضيت بينهم زهرة شبابي ، صباحي من كل يوم ، وحيدون يا سلمى ، انهم افجع من تذوق الوحدة . ولم تجمعهم الا وحدتهم .. ان المناضلين ليسوا شركة ، انهم اعداء ، اعداء الى اقسى العداوة ، من قال لك اننا قوم الرحمة ، لو اننا قبضنا مرة فقط على عنق احدهم .. لدينا انياب ، انياب لم تقلم من زمان ...

ـ قلت لك انني تعلمت وحشيتك ، ولم اقل لك انني سأمارسها كما تمارسها انت .. انني احترف يأسي الخاص ، أهذا يعجبك ؟

واقهقه بعنف اسود :

ـ أهذه بطولة اخرى يا سلمى ؟

ـ كلا ! كلا ! ولكنها دموعي نفسها ، انني لا استعيرها ابدا .. ان اعظم اخطارك هي انك تبعث في كل انسان وحشه الخاص .. وعندئذ تتحداه ، انك هذه القوة . قل لي ايها البطل . تمهل ايها الرجل الكئيب . يجب الا تحجب وجهك عن احد . انه اجمل وجه يحمل انبل كآبة ..

انك تبكيني يا انور ، هذه العيون الغائرة تعبت من كثرة ما حملقت فيما هو وراءها .. اتجه الينا قليلا ، اعلم اننا جميعا ملء ذاتك ، ولكن لا تجعل ذاتك كلها تحمل العالم كله .. تلك هي انانية اخرى . علم الملك يا حبيبي .. انثره ، عندئذ ستتمزق اشباح الفرح المزيف ، وتتفتت اصنام البطولة المدعية .. ولكن قل لي بربك كيف اخرج من نفسي ..

ـ لا حاجة لك لان تخرجي منها ، انك تدخلينها ، تلك هي حكمتنا اليوم .

ـ لقد حاولت ، حاولت طيلة عمري ان اكون ، ان اكون هذا الانسان، ما زلت اجهل الوسيلة . لا احسب ان المسألة كانت تبشيرا ، او دينا جديدا .. معك حق .. لسنا في صدد هواية اخرى .. سئمنا الدعوات ، مللنا الذين يقعون على نتوءات الارض ويصرخون باسم الآلهة ، ويتحدثون باسم الاموات والاحياء ، يتكلمون باسم الابدية ، بالقيم الخالدة ، بالمبادىء الحرفية المصنوعة في عقول من خشب وتنك ...

انها مسألة ان تصنع الامة شخصيتها ، بأن يصنع الفرد شخصيته. لا حاجة للكلمات المزعمة ، وللزعماء المتحجرين . ينبغي للانسان ان يكتشف طريقه بضوء عينيه . ولكن كيف يكون ذلك ؟

عندما كنت طفلة ، كنت ارقب عودة امي كل مساء تأتيني بالخبز والطعام . كانت تقول لي انها تقضي النهار بين عصافير البساتين الذين

الغرفة الوحيدة التي هي كل بيتنا ، كان اكثر ما يشغل حواسي وتفكيري هو العصافير التي ترقص على اشرطة الكهرباء وتقفز من نتوء الى نتوء في الدور وقد تقف احيانا على حافة نافذة ، وكم هممت بأن اقبض على بعضها . كانت جميعها تفر . واما انا فما كان لي سوى يصنعون لها الخبز ويأتون لها بالطعام .. وانا نفسي لقد اتت بي العصافير اليها . وخلال كل نهار طويل اقضيه لوحدي خلف نافذة ان اسألها عن امي .. واين هي . واعجب لماذا لا تصادقني كما تصادق امي . كنت وحيدة في طفولتي ..

ولكن لم تمض سنون قليلة حتى رأيت البثور في يدي امي ، والتجاعيد عالمخيفة في وجهها العابس الصامد وقارنت بين لباسي ولباس زميلاتي في المدرسة وبين لباس الامهات ولباس امي ..

كانت امرأة غسالة ، تشتغل في البيوت ، وتأتيني كل مساء بفتات المائدة وبالتعب الصامت ، والعروق النابضة الزرقاء في الرقبة ، وتشقق الجلد الجاف في الايدي والفطيط المفزع .. وانا لصقها شيء صغير يفكر في كل هذا العالم الذي لا تبنيه العصافير حتما .

ما الذي يجعلك اذن تعتقد انك ابن المنعطفات وحدك ، والوقفات الجامدة مع حزمة الصحف تلعق الايدي ، وتقتطع لحمات مدورة من اجسام العابرين ، الفرنكات الحمراء القذرة .. انك الابن الوحيد لوحشة الطفولة وحقارة الشباب .. ومأساة السن الثلاثين في دنيا المدينة ذات الاضواء الزرقاء اليوم .. وغدا تعود الى افراحها وانوارها البيضاء ، وترجع البضائع الى ايدي الساومين .. بضائع جديدة هذه المرة مدغومة بطابع بور سعيد وغزة ..

ولكننا لن نسمح لهم .. كل شيء ينبيء انه لم يعد ثمة مجال للتجارة بجنس العرب .. بطفولتنا وتشردنا وثورتنا ..

ما لك تبتسم ، أتظن تلك من الكلمات الكبيرة التي يلقيها مهووسون على نتوءات الارض .. ولكن لنا الحق بأن نرددها نحن وبطريقتنا الخاصة وبلساننا الخاص ..

ـ ألا يكفي ان بور سعيد لبور سعيد فقط ؟ ماذا نفعل نحن هنا ؟ اننا نتناقش ، نضع التعاريف للابطال والخونة . نزن الحقائق بكسلي وحماقتك . نشعل الاضواء الزرقاء . نبحث عن القاهرة في المذياع . نستمع الى صفارات الانذار ولا غارات حقيقية ، نخاف ، نخلي الشوارع منذ الساعة الرابعة مساء .اتسكع انا .. ويجد رواد المقاهي حديثا دسما بين النراجيل والوجوه الجافة الصفراء . والقى صديقي ، واحادثه من خلف جرائده . واتلصص في الشوارع .. وانظر الى واجهة النادي ، نادي الكبار ، السري دائما . إصعد درجك . ادخل بيتك . انعم بالرفاه والانوثة ، ووطنية الانوثة ، وعذوبة الثورة ، على الحرير ، وبين اقداح العرق ، ومع السمفونيات السوداء . واستمع الى قصة ابنة الفسالة التي اصبحت اليوم تشغل الفسالات والخدم في بيتها . ألا يرضيك هذا .. اننا جميعا مدعوون لان نصمت يا عزيزتي اخيرا . فكل صوت اخر يضاعف حقارتنا ..

ولم يبق الا وهج النار من المدفأة . والمرأة المرتبكة مطروحة ، مرة اخرى ، على الديوان المخملي ، ترفع سيجارة من فمها . وترميها ويدها الى قرب الارض . والرجل الطويل جالس على مقعد بدون مسند . ينحني الى الامام . تختلط ملامحه بالظلال . ويخبو لمعان عيونه تحت جفونه نصف المغمضة ..

كل انسان اذن يجر خلفه جثة ماضيه . يلتصق بالعفن ، ينشر النتن على الاخرين . ألا يعلم ان كل ماض جيفة لا تبعث ؟

ومع ذلك، فانني اسمح لنفسي بأن احاور صور الماضي ، ان كان لي ثمة ماض . ان الناس جميعهم يشاركونني جثة هذا الماضي .. انهم مدفونون بين أحشائها ، وانا مدفون معهم . ويوم ، ابعث ، سيبعثون معي .. ان الذي يدوس على طراوة الرمال ، ستعلق ذرات الرمال بنعليه ، واما آثار اقدامه فسرعان ما تذروها الريح ويمحوها سأم الوحشة .

فلماذا لا تكون سلمى بدون ماض . الحوادث تموت . اما وجه الانسان ، فانه سيظل ينطق بمن مات ومن امات .. لقد وجدت كلمة اخرى اذن ، فأقوم من مقعدي ، واتجه اليها :

ـ سلمى .. انني أسألك عن براءتك .. لقد حدثتني انك عاشرت في بداية حياتك شابا .. كان سخيفا أليس كذلك ؟ ولكنه كان ينتظرك امام باب المدرسة .. وعندما كنت تخرجين بين باقة من الزميلات يلهب الفخر والخجل خدودك ..

كان يزعجك كل مساء فيأتيك ببطاقات السينما او الحفلات . وكان ينعم عليك بين وقت وآخر بالهدايا ، يختلق المناسبات لذلك ..

ولكنك رفضته : شاب غرير ، يهتم بلمعة شعره وحذائه وخدوده كلها مرة واحدة .. هكذا اذن ..

ـ وماذا اتى به الان ؟

ـ لا تصرخي بوجهي هكذا .. احب ان اجوس بين آثارك قليلا ..

ـ بل هذا تعذيب ...

ـ ألم يكن مرحا ، يستطيع اقتناص فرص التسلية ، يسرق من خدك القبل ، يهيء مشاريع النزهة في الضواحي .. اما كان اجمل منك قليلا، لقد كان يحبك .. و ..

ـ وماذا بعد .. وماذا بعد ؟..

ـ كان يعد لك مستقبلا بريئا .. وبطريقة ما اشعر انه كان بطلا .. كان يتآمر ضد غرورك .. وانت تآمرت ضد براءته !..

ـ فعلت ما كنت ارضاه .. ولن اندم ، لن اندم !..

ـ وها انت ارملة ، تنظرين كل لحظة الى المرآة .. لك كل لحظة مع كل تجعيدة مأتم . امرأة بدن رجل ، بدن ولد ، بدون مستقبل !

ـ وانت من ايها الرعديد ؟.. انك بدون حتى ذكريات . طفيلي على ذكريات الآخرين . فضولي تنهب من ايامي .. تفترس وجه هذا الشاب، الشاب الذي تحاول ان تجمع فيه براءة ضائعة منك ومنه .. قل ما تريد مباشرة ..

ـ اشعر بالشيخوخة !..

ـ وماذا بعد ؟

ـ أما سألتني ان كان لي ان احبك ..

ـ لقد احتقرت نفسي تلك الساعة ، يجب ان تنسى ما قلته . الغريب انني ابحث عن .. عن الحب عندك ..

ـ وماذا لو قلت لك انني احب حقا ..

ـ هذا شأنك ..

ـ دعيك من اللهفة .. احب امرأة غيرك .. احب هيفاء .. بنت الاستاذ الكبير الذي تنازل اليوم وقضى معي ساعات في النقاش حول المصير ، وكان من قبل قد تنازل فدعاني الى بيته .. اعرف ابنته جيدا..

ـ هذا حسن .. قم اذن وتزوجها .. لقد قررت انت وما عليك الا ان يجهزوها لك ويقدموها عشية الغد .. لقد بدأت تضحكني حقا يا أنور ..

ـ انا اضحك من نفسي اولا .. اريد هذه الفتاة يا سلمى ، اريدها بكل شقائي وكآبتي .. انت لا تدركين عودة اليائس الى الحياة . لأول مرة كثفت امالي في انسان . تنازلت عن كل شيء .. الا عنهـا .. ستكون لي ..

*

واستمر الرجل الطويل يهذي على هذا المنوال ، وهو يهبط درج بيت سلمى خارجا . ليجد حريته مرة اخرى مع السكون والظلال . ولقد توقف وهو ينحدر نحو الشارع الخلفي لحظات . انحنى الى الامام قليلا . راعه صوته المتدفق الذي القى من خلاله بكلمات ما كان يعي محتواها تماما . ادهشته هذه الهمة المتدفقة في عروقه وارادته . انه ينزل الدرج كمن له هدف حقا . ويتجه في الطريق كمن هو على عجلة من امره . أتراه يجرب مرة ان يكون انسانا له شيء محدود ينتظره على هذه الارض .. يجرب ان يكون انسانا عاديا يقلق لامل . ويخشى لاضطراب صورته في خياله .. وتلهبه اعاصير احلام واوهام معروفة ؟

هذه هي اذن بشائر الصحة . انه يستطيع ان يسير كما يسير كل الناس في الشوارع . وسيخاف ان وجد نفسه وحيدا في حي مجهول مقفر ..

ما كان انور ليجهل في نفسه تلك الطاقة المختزنة من الارادة على الحياة، على كل صعوبة تتحداها رجولته . فهو في ساعته هذه يشبه تلك الساعات الكثيرة التي قرر فيها ان يكون شيئا ، ان يقرأ ما يكتب في الجرائد التي وجد نفسه ، وقد شب وهو يحملها للناس الذين يعرفون كيف يقرأون ما يحبر عليها ويسود .

وانه ليشعر الان بتلك القوة من الحقد والغضب والعناد والبسالة ، هذا الخليط العجيب من العزم الانساني ، الذي جعله ينتسب الى مدرسة ليلية ابتدائية ثم يتابع في مدرسة ثانوية ليلية ، ثم يدخل الجامعة .

وصل انور الى الحانة وما زال يضرب الارض بمثل هذه الخطوات المريدة . ولم تطل به حيرته ، فقذف بنفسه اليها . وصدمه دفعة واحدة ذلك الوجه الذي يعرفه جيدا ، الكومة من الملامح المعجونة بقبضة لكمة .. كان هو ابو الفوارس عينه ينبعث من العدم فجأة .

كان واقفا امام البار وفي يده كأس كبيرة لشرب الماء . ملأها بالعرق.. وما ان رأى انور حتى تجرع الكأس مرة واحدة واندفع اليه يحتضنه من خصره .. ووصل رأس ابو الفوارس الى قرب انف انور ..

ـ أين انت ايتها النخلة الجدباء ؟ اصبحت اكثر نحولة واكثر طولا ، كأن الله يريد ان يشدك من رأسك اليه .. وقدماك تفرسانك في التراب .

وتأمله انور لحظة ، وبنظرة سريعة ادرك آثار النعمة على هيئة صديقه.

ـ عادت آلامي يا ابو الفوارس !..

فتنحنح هذا .. وهم ان يلقي بسيل من الكلمات من بين اوداجه المنتفخة الحمراء لكنه ضحك ، ثم همس في اذن انور :

ـ رجعت ايامنا يا انور .. هذا الجبل من العضلات أين يذهب ؟ لا تسخر من البطولات يا عزيزي .. انني مأجور ايضا ، اجرت عضلاتي ولكن هذه المرة في خدمتكم جميعا .. جميع النيام والجبناء ..

ـ أحقا .. وهل تحتاج المثل العليا اذن الى العضلات ؟..

ـ انني ادافع عنكم .. هيا تعال معي ، دعك من الجد يا اخي . اود ان اتمتع بهذا الوجه مرة اخرى ، هذه منضدة فارغة .. انك تعرف المكان .. ها ها ها .. المكان الضيق الذي يجمع السكيرين المثقفين ، وغير المثقفين .. انا مثلا .. وصاحب الخمارة .. هذا الكرش المجتمع كله وراء صندوق المال ، انه يعد الكؤوس .. يساير حركة يدنا بين الطاولة والشفاه المشققة .. أترى ؟ لقد اصبحت استطيع الكلام .. تلك عدوى لعينة يا انور نقلتها عنك .. ان تتفرج على كل شيء حولك .. وان تفضحه .. تذكرت .. أجل ان عملي كذلك هو نوع من الفضيحة .. لست انت وحدك من يملك الاسرار ، انني صانعها ... انني مكتشفها اجمعها من كل زاوية ومن كل وجه ومن كل حركة لجسد مرتعد ينسرب في ظلمات الشوارع .

وعلى ذلك ، فان لسان ابو الفوارس كان منطلقا كخزان من المحفوظات يتجرع كل كأس تقدم له . وعيناه تنفران بالوهج الاحمر والحيوية المنبعثة خلال حطام خمسين عاما من تأجير البطولات للخائنين .

ـ قريبا ستقع في هذه القبضة .. قبضة ابو الفوارس حزمة من الرقاب ، الناعمة المصقولة المصنوعة من لحم غير لحم البشر . سآتيك بصلعات كانت تأبى ان ينعكس عليها الا زمرد الاله في قبة السماء ، بكوم من البكوات والاعيان ، من قمامات الالقاب والاسر العريقة ..

قريبا سترقص المدينة كلها حول اعواد مشانق ، حول اجساد مدلاة بأكياس القذارات ، بجيف بتنت ، بتقاليد شعوبية .. نعم هذه اللفظة التي حفظتها عنك لهذه الفئة .. هذه الفئة العثمانية من عصور ماذا .. عصور الانحطاط .. هذه الجيف ستتدلى في ساحة المرجة ، وسنلقي جميعنا ثاراتنا .. معلقة امامنا ..

انني ارقب هذا السكران الطيب . هذا الرجل الضخم ، في الفاظه وعضلاته ، وجثته ومشروعه الجديد . وعندما انهى ما في جعبته قليلا غمرت تقاطيع وجهه المكتلة لمحة من الفزع الساذج المرتبك . شعت من عينيه نظرات الاستفهام الصافية ..

كان يود ان يستمع الي اخيرا ، ان يرى مدى موافقتي على حماسه ومشروعه .. لكنه رجل يعمل بالاجرة .. على (الراس) . وعم جو الحانة ضباب من الدخان والانفاس والظلمة المغششة في هذا الركن ، منذ اقدم قبو التأم فيه جمع من البشرية المنهوكة القوى، الضائعة الجهة، الزائغة الانظار ، التعبة من كل نور او تحديد او شكل معين له قالب يدب على ارض الزمان المطوط ... من ازل سحيق اسود الى ابد سحيق اسود ..

ولقد اختلطت الضجة وغرقت في سديم من الاصوات المتشابهة ، واختنقت رئة الفضاء برائحة اللحم المشوي والعرق الرديء والنفس الانساني القذر . وتلامست كراسي الزبائن . وكلما ازدحم المكان كلما عمق الجو واصبح ادعى الى اللذة والشقاء الابليسي . هذا هو فرح انساننا الجديد .. اللذة السادية تحت لسعات السوط .. سوط في يده وعلى جسده .

واصبحت لا اتبين الوجوه من غمام في رأسي ، ومن غمام في الجو . ولكن هذه هي الملامح الشابة الوضيئة تتلاقى حول العرق والموائد الوسخة . حلقات من طلاب ...

هذه زمرة ولا بد من شباب الجامعة . انهم يتهامسون مرة . تتلاقى رؤوسهم وتتصادم حول كلمات. تعلو اصواتهم من بئر مخنوقة . يتحدثون عن الحب العذري ، وعن ساقي احدى الزميلات ، وعن ثأثأة الاستاذ المحاضر ويعودون الى الموضوع الاصلي .. ماذا بعد بور سعيد ؟

وتتصادم الكؤوس والرؤوس ، والنفوس الشابة البريئة . وتنهرق

السذاجات الملوثة بروائح الخارج المبهم .. خارج النفس والمدينة والمسافات .. الى حدود الصحارى والخضم ، الى حيث يمسك الشعب لاول مرة بسلاحه ليدافع عن قضيته . ويتساقطون ، ويتساقطون واما هنا .. فينتصبون ، وينتصبون ، وتعلق انظارهم بالجو . ويبحثون في المذياع عن صوت القاهرة ، صوت القنابل وعبد الناصر من القاهرة .. ويسكرون .

يسكرون ويناقشون الله والشيطان ، والعقائد والقواد ، والرؤوس الصغيرة ، والجيوب المنتفخة ... الساسة العظماء والجواسيس الخلصاء.

عندما كنت طالبا جامعيا ، كنت أعف دائما عن مخالطة الزملاء .. وما كان أسرع دخولي الى الجامعة وخروجيمن بوابتها الحديدية الصدئة .

كانت هناك مناظر عجيبة تتقيأ قيمها .. واختنق برائحتها وحدي . كانت مناظر موزعة على درج النادي وفي زواياه ، وبين اشجار الحديقة وفي اركان البناء الجامعي ، او الثكنة العثمانية المرعبة . قامات مريضة نحيلة من شباب مدع مغرور يجمع حوله القزم من الذكر والانثى ، وتستمع الى الحديث ، فهو عن سارتر ، والعروبة ، والماركسية ، وكهوف باريس ، والاستعمار .. وكل الخرافات العظيمة التي يحترق في اتونها جيل بعد جيل لا يدري عن المصير سوى نظرة مرتعدة خارج اسوار الجامعة .. والى حدود المستقبل القريب في مهالك المدينة الغامضة المجهولة .. وبين اناس تجار بالجيل وبجميع المثل المسروقة من قلوب البراءات التائهة .. المظلومة .

المظلومون .. المظلومون .. واصداء الصراخ تهدم اكثر فأكثر من بناء السجن المتداعي ...

احتقرهم . ادوس ظل قامتي المديدة ، ادوسها كلها مهما تطاولت امامي على احجار الرصيف المصقولة من الاقدام المسرعة المجنونة في سيرها واهدافها الاسطورية .

واضرب الكأس التي امامي واقوم .. وابو الفوارس يعرفني . لا يحير لفظة . يحدجني بنظرة قلقة مريبة وانا أتركه . سئمت منه ، ومن جديد يعدم مخلوقاته ، ويميع اشكالها .. وملامحها .. ولو كانت وجها بطوليا .. مأجورا في النهاية .. ووجوها من الجيل الجديد الذي يحرك لسانه بأكثر مما يحرك يده ..

وغبني الشارع الطويل ..

*

الليلة هذه اضواء بيضاء . دور السينما تعج بالناس . الشوارع تخنقها الاقدام . تتكدس فيها الاشياء المتسكعة . لم يبق ثمة ظلام ، ولا وحدة ، ولا شبح رجل طويل على رصيف افعواني لا نهائي .

بائع الجرائد ينتهي من حزمته باكرا ويأوي الى ثقوبه .

*

لم يعد لي ثمة مكتب . اغلقوا المكتب الكبير للاستاذ الكبير ، وغرفتي الفرعية معه طبعا ، وختموا الباب العملاق بالشمع الاحمر ... منذ اكثر من شهر ..

فأصبح محل اقامتي الدائم اثناء النهار المقهى . وفي الليل ابيت اما عند سلمى او في الماخور في الغرفة الخلفية لغرفة سعاد ..

ولقد تملكت مني عادة جديدة ، بعد اغلاق المكتب ، فأجول كل مساء حول بيت الاستاذ المظلم الا من غرفة ابنته هيفاء .

تحيط بالقصر تلك الحديقة الحزينة . ويقوم القصر اسود جبارا في كتلة من الديجور العابس المرعب . وتبقى النافذة العريضة تشع بالضوء من هذا الكائن الصامت .

ها هي ذي تذرع الغرفة جيئة وذهابا ... الجديلة من الشعر الاشقر محررة ، فسيل من النور المجعد الناعس مرسل على الكتفين . وثوبالنوم الطويل يجوس خلاله شغوف المصباح . وخطوط الوجه الجانبية حانية وادعة ، ووحدة غريرة غريبة تملأ ارجاء القصر سكونا مهيبا . وهيفاء سجينة هذا السكون . نواس من العذاب المكبوت ينوس في الغرفة الضيقة بين النافذة والمرآة . من النافذة تشرف على العالم الذي غار في اسوده ابوها العظيم . وامام المرآة ينبثق الجمال الحر الذي ينزع لأن يخلق اقداره بالنظرة الوديعة والفم المحجر ، الجبهة العريضة الواضحة والعنق المجدول من مرمر ملائكي غض .

في مثل هذا المساء منذ اكثر من شهر طرقت باب القصر قبضات فولاذية. وتدخل جماعة مدججة بالسلاح . وربما برز بينها منكان خطيب هيفاء ، وربما وقف في الخلف ابو الفوارس يفي بوعده لاهل المدينة .

ـ لدينا أمر بالقبض عليك .. الخيانة العظمى !

وينتزع المحامي العظيم من سريره وحريره ، ليمضي في ظلام الليل الى مصير ، حكمت به ثارات المظلومين المجهولين منذ مئات الاجيال ، عليه وعلى طغمة مسلولة بخبثها ، كهان الخبث ، في معبد الزندقة والجحود ، وراء ظهر الامة .

واجول حول القصر ..

ابحث عن خرزتي جمجمة ، عيني رجل ، لأعكس فيها مرآتي . ليس لهذه الوحدة من اخر . ان سيزيف فقد الشعور بالزمان . وانتهت الذروة الى هاوية والهاوية الى ذروة ، فتساوت الابعاد في مأساته .. الا من هذه الدودة المسلولة التي تنخر في قلب الاستقرار فتؤرقه . دودة الامل التي تحفر في العدم ، في صخر العدم لتنبت شوكة ملأى بالماء ..

المتعبون تحت عبء الامل .. لم اعد من قافلتهم ، لقد يئست من املهم ! لقد اضاءت شركة الكهرباء شوارع المدينة وانتهى عالم الاشباح بين العيون ، وانتقل الى عالم اشباح بين القلوب والضمائر .

انني ارقب هيفاء ، من هذه الزاوية المظلمة قرب حديقتها ، مقابل نافذتها العريضة .. اعذبها ، اعذبها انا كذلك بدوري . وليس لها قط ان تكتشفني ، ولا ان تلمحني ، او تذكرني .. رغم انها حاولت انتتصل مرارا بعد توقيف ابيها . . لان أكون محاميا عنه في التهم المتدفقة كالصخور على رأسه ومصيره .. الخيانة العظمى وفنها .

فن هذه الخيانة في كل عرق من عروق امتي ، في كل ثانية من حياتها ، تحت كل فجر من ايامها ، بين طيات لحوم اطفالها ، وعزائم شبابها ، ويأس شيوخها .

انا من هنا ، من غيبوبتي ، اعذبها ، استرقها ، أعد عليها انفاسها ، وآهاتها ، واكشف انوثتها المهانة المحطمة . انني لذتها البعيدة ، انني ديانها المخيف .. من هنا من صمت وقفتي ، ووحشة نظرتي ، ورعشة شفتي حول الكلمة المفقودة التي لن اقولها ، ولن تسمعها هي حية أو ميتة ..

ويذوب المساء في فجر جديد .

النهار صاخب ، ورؤوس الصفحات من الجرائد حافلة بالعناوين الضخمة حول الاعترافات ، الاتهامات ، المرافعات ، معلقات الخزي ، والمؤامرة الازلية ضد كل امة تبعث المجد في دم الانسانية .

ويطل رأس الحكمة في المقهى ، ينهج بالشعر الابيض ، والجبين ..

سيل من نور شاب ، والعينان حقيقتان تلدان مع كل نظرة مشعة بالسر والايمان ، بالشك والكرامة ، بالتجربة والنبوة ..

لقد كان يقول ذلك منذ ثلاثين عاما ، يفلسف ذلك ، ينادي ويؤسس الدعوات الانسانية في شعبه (لذلك) .. للمؤامرة ضد الامة العربية ترتكبها بشرية الغرب بيد عربية ، بالحثالات ..

كان يؤمن بالامة ، وبالمؤامرة . وها هي المؤامرة يصطدم تلقاءها وعي الشعب ، فلا يجرؤ ان يطمس عيونه هذه المرة ، ان زعماءه ينهارون تحت سوط ابشع جريمة .. الشعب ، ولاول مرة ، مدعو لأن يكون ديان قضيته . انه اليوم المسؤول الاول عن الهه وشيطانه ..

كان رأس الحكمة يتحدث كعادته بين جماعة من شبابه الذين يعرفهم ولا يعرفهم حول منضدة صغيرة في المقهى المزدحم . لا يتشفى ، لايحقد لا تلوح على وجهه اية امارة عن نية سيئة لم يعرفها في حياته حتى ضد جلاديه ، جلادي عروبته منذ ايام المستعمر .

انظر اليه . بدأت حقيقتاه ، عيناه ، باللمعان الجوهري ، انه يمسك وحي فكرته . يجمع الافق السماوي من الشارع ، من خلال آلاف العابرين من اهل امته . انه يبسم لي .. لقد زايله شكه ، لم يعديحمل عقيدة عن المؤامرة . اصبحت ملك الدهماء الذين يصغون الى المذياع الساعات الطويلة يستمعون الى حقارات اناس كانوا مرة يحلمون بحكام تاريخ كامل على مذبح وحشيتهم .

ـ ستعلق رقابهم ، ستعلق رقابهم في ساحة المدينة ، ان الامةاكتشفت اعداءها اخيرا ، اكتشفت ضميرها الاسود ضد وجودها ، فضحتمرضها .. انها تعرف مسؤوليتها اليوم ..

كان الشباب يتزودون من (رأس الحكمة) المشع ، كل يوم بتفاؤل صعب ثقيل . وكانت نفوسهم وهي تتشرب بلسم الثقة تتشرب سم الخوف .. الخوف من اي شيء ؟!

بعد الظهر شحبت مباني الشوارع بشمس الاصيل المصفرة . وفي المساء همد كل شيء مرة ثانية ..

ودون ان تبدل المصابيح البيضاء بالمصابيح الزرقاء ..

ودون ان يهرب الناس الى بيوتهم ..

ودون ان تتطلع العيون المذعورة الى السماء ، ترقب الطائرات العدوة..

ودون ان تدوي صفارة انذار واحدة ..

كان جو بور سعيد قد انتقل حتما الى دمشق . ودون ان تعلن اية حرب في الشوارع . فقد كانت الشوارع في صمتها المريع تعلن عن نهاية حرب ..

وصرخت في وجه سلمى :

ـ لقد وقعت الهزيمة اخيرا .. وابو الفوارس يتيه هذه الليلة بين الحانات ، والناس يغلقون المذياع الى الابد .. لن تعلق اعواد المشانق ، لن تقتل دمشق نفسها لتخلقها بكرا جديدة حرة والى الابد ..

خفضوا الاحكام .. لن تكون هناك جراة لاحد على الاعتراض .. من اجل قضيته ..

خسرتها يا سلمى .. خسرت قضيتي .. ولن يجديني نفعا بعد اليوم كسلي ، وتسكعي المرير بين الماخور وبيتك ، بين بائع الجرائد ونافذة هيفاء ..

وكان الرجل الطويل يميل بنصفه الاعلى نحو الامام والى الاسفل قليلا . وكان وجهي يعاني صفرة الموت الصامد . ما زالت بعض الكلمات الهادرة تتفجر من كسله العتيق . بينما كانت سلمى تتمدد شيئا فشيئا على الديوان وتفتح جريدة مسائية .

وقام الرجل الطويل من على مقعده ، بدون مسند ، وفتح النافذة .. ومن هناك انحنى انحناءته المعروفة ..

وكانت المدينة تحت انحناءته تلمع بجواهر الضوء الابيض .. وكان اللمعان ترجفه رعشة ، كرعشة النجوم البعيدة وهي تهوى الى الحضيض.

مطاع صفدي

صدر حديثاً

الناس في بلادي

شعر

صلاح الدين عبد الصبور

دار الاداب ـ بيروت